

صناعة الخشوع

د. عبدالجبار عبدالله القباطي

مقدمة

الحمد لله خشعت له قلوب العارفين، والصلاة والسلام على ذروة سنام الخاشعين رسولنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

ثم أما بعد: فلقد جعلت أثر القرآن في إيجاد الخشوع " صناعة " وسميتها " صناعة الخشوع " لأؤكد أن الخشوع منتج من أهم منتجات القرآن . هذا المنتج إذا صدر يحمل وكالة تصدير فلان من الناس فلا يتوقف المنتج أبدا حتى يلقي هذا العبد ربه .

وبالبحث لي على البحث في الموضوع : أي كنت ولا أزال . في فترة الـ ١٠ سنوات الماضية . أجد أن القرآن يشد تاليه إلى حالات إيمانية لم يخطر بباله أن يخالفها، ولا أن يتلمسها ويستشعرها.

هذه الحالات النادرة . نسبيا . جعلتني أسأل نفسي سؤالا مهما هو : كيف لي أن أستلهم حالات الخشوع هذه، وأن أستحضر قلبي عند قراءة القرآن بحيث أتأثر بالقرآن، وأتأذى بتلاوته !!! وأتأذى بالعبادة عموما !!!

ولقد قويت في هذه المهمة حين استشعرت كم هو مهم هذا المطلب (الخشوع) ليس لي شخصا فقط، وإنما لجميع المسلمين، بل لأمة الإسلام.

لا سيما أن للجانب التعبدي في المسلم آثاره الهائلة على بقية جوانب حياته، خاصة علاقته الاجتماعية وعطاءه الحضاري.

إن المناهج التعبدية الناهضة بالأمة في جانب العبادات هي الخطوة الأولى لنهضة الأمة في جميع جوانب الحياة. فلا نهضة حققة لهذه الأمة بغير عبادة حققة، ولا عبادة صحيحة خاشعة إلا وتثمر نهضة حقيقية لأمة الرسالة الخاتمة .

أن من سنن الله أن أية قصور في المنهج التعبدي يؤدي إلى قصور ذاتي في ذات الإنسان وصلاحه ونشاطه، ثم إلى قصور حضاري في واقع الأمة. وأن الذين نسوا حق الله في حسن عبادته والخشوع له . وأن كانوا مؤمنين ومتدينين . ينسيهم الله حظ أنفسهم في أن يحوزوا لها الطمأنينة في الإيمان واللذة في العبادة، ثم ينسيهم حظ أمتهم في أن يحوزوا لها العزة والكرامة والسبق الحضاري .

و هذا ما حذرنا الله منه في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِعَادٍ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ (١٩))^١

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي : "وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن
يتفقددها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن
رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام
بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنسأهم الله
مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا،
لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون"^٢

ومن عجائب القرآن أنه في الموضع الذي يحذر المسلمين من القصور في الجانب التعبدية يذكر
العلاج الحاسم لهذا القصور وأنه يكون بالخشوع، ويؤكد أن القرآن يحضر الخشوع للمؤمن مهما كان
حاله ضعيفا في العبادة .

يقول السعدي في المناسبة بين التحذير من الداء في الآيتين السابقتين وتقديم أنجع الدواء له في قوله تعالى
بعدها (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١))^٣ .

"ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما
دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو
أنزله على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب"^٤ .

١ [الحشر : ١٨، ١٩]

٢ تفسير السعدي - (١ / ٨٥٣)

٣ [الحشر : ٢١، ٢٢]

٤ تفسير السعدي - (١ / ٨٥٣، ٨٥٤)

ولقد تناول علماء السلف مرتبة الخشوع بالتأليف وكتبوا فيها أسفاراً قيمة، وكان أبرز هؤلاء الإمام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين، كما أدلى فيه المتأخرون بدلوهم فأخرجوا رسائل وكتب مرصعة بالأدلة و النقول بحيث يخرج المطلع عليها بحصيلة علمية . في الخشوع . عظيمة، وجملة فوائد عن الخشوع عميمة.

ولو لم يكن الذي دفعني لولوج هذا البحث القرآن نفسه وتأثيره العظيم في حصول الخشوع، لكنت سلمت بعد الاطلاع على بحوث من سبقني أنه لم يعد هناك بعد ما ذكره فيها وألفوه من مزيد، ولكنت ألقيت عن كاهلي عصا التجوال في عالم الخشوع الواسع الرحيب، ولسئمت أن آتي فيه بجديد.

ولكن الذي دفعني إلى البحث هو أن القرآن هو من يدفع تاليه إلى الخشوع . مع أن القارئ أو السامع في أكثر تلك الأحوال لم يكن متأهلاً للخشوع، ولا مستجمعاً قلبه له. فكيف إذا قصده؟؟!

وعليه فالجديد في بحثي: . أولاً أي تناولته من منظور قرآني، وذلك بتدبر آيات القرآن والخروج منها بقواعد كلية للخشوع.

وثانياً : أني وجدت عامة من تكلم في الخشوع لم يركزوا على سلوك القلب فيه مع أن الخشوع سلوك قلبي صرف، بل ذكروا الجواذب والصوارف والعوارض والظواهر والمبادئ والعواقب ... ولم يركز منهم على القلب إلا القليل . ومن هؤلاء القليل الإمام ابن القيم رحمه الله، ولكن بصورة مجملة وليست تفصيلية . ولقد وجدت أن دور القلب هو الدور الحاسم في حصول الخشوع .

وثالثاً : أني وجدت مؤلفات السابقين ظهرت على هيئة مواعظ وزواجر تأمر بالخشوع وتحث عليه، وتنهى وتزجر عن ضعفه أو عدمه. في حين سعيت جهدي أن أجعل بحثي منهاجاً عملياً لتحصيل الخشوع وتوليده .

ولقد خلصت من البحث أنه لا يجمع القلب على همه الخشوع مثل القرآن . ولا يعمق فيه نبتة الخشوع ويقويها مثل القرآن . بل لا يجعل الخشوع سجية وخلقاً ثابتاً للقلب مثل القرآن .

ولقد كانت هذه الفوائد العملية العظيمة حسي للمضي في البحث، فشمرت له ولم آلو فيه جهدا حتى خرج بهذه الصورة.

ولقد عرضت الموضوع في أربعة مباحث . كالتالي:

الموضوع:

المبحث الأول: بين يدي الخشوع .

المبحث الثاني: التدبر و الخشوع.

المبحث الثالث: توليد الإيمان وتفعيله.

المبحث الرابع: بين طمأنينة الإيمان ودرجات الإحسان .

المبحث الأول: بين يدي الخشوع^١

أولاً : تعريف الخشوع والمقصود بالخشوع عند قراءة القرآن.

تعريف الخشوع :

قال ابن القيم في مدارج السالكين: "والخشوع في أصل اللغة : الانخفاض والذل والسكون....

و الخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره"^٢

ثانيا : أقوال في حقيقة الخشوع (في الصلاة):

. يقول ابن رجب الحنبلي : ف " لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته فلما وقف في محرابه واستفتح كلام سيده خطر على قلبه أن ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين فأنخلع قلبه وذهل عقله "^٣

. وقال مجاهد رحمه الله : " كان إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه في شأن من شأن الدنيا إلا ناسيا ما دام في صلاته . "^٤

كلام جامع في وصف الخشوع وبيان حقيقته من تكلفه :

١ كثير من النقول في هذا المبحث من كتاب ٣٣ سببا للخشوع في الصلاة . محمد بن صالح المنجد .

٢ مدارج السالكين - (١ / ٥٢٠، ٥٢١)

٣ الخشوع في الصلاة ابن رجب ص : ٢٢

٤ تعظيم قدر الصلاة ١ / ١٨٨

قال ابن القيم رحمه الله تعالى مبيّناً الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع (النفاق) أو [تكلف مظهر الخشوع دون حصول حقيقته] : " خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء و شهود نعم الله وجنایاته هو، فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح فالحاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته، وسكن دخالها عن صدره، فانجلي الصدر وأشرق فيه نور العظمة، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حشي به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار محبباً له، والمحبب المطمئن، فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المحبب قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماء فيستقر فيها، وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالاً له وذلاً وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه . فهذا خشوع الإيمان، وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراعاة ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبه ينتظر الفريسة " ١ .

ثالثاً : خصائص للخشوع :

• الخشوع عظيم شأنه :

فهو أول صفة للمؤمنين قضى الله بفلاح أهلها . قال الله تعالى : { قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون } ٢، وقد وصف الله به النبيين والصالحين في كتابه الكريم { إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً } ٣ وقال الله تعالى : { ويخرجون للأذقان ويكون ويزيدهم خشوعاً } ٤ .

و الخشوع ضرورة ملحة دنيوية وأخروية للنجاة من الوعيد من تعطيل القلب منه . يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (خمس صلوات افترضهن الله تعالى، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتتهن، وأتم

١ كتاب الروح ص: ٣١٤ ط. دار الفكر - الأردن .

٢ [المؤمنون : ١ ، ٢]

٣ [مريم : ٥٨]

٤ [الإسراء : ١٠٩]

ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل، فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه .^١

• الخشوع أول ما يرفع من الأرض :

قال النبي صلى الله عليه وسلم (أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع، حتى لا ترى فيها خاشعا .^٢ . ويقول حذيفة رضي الله عنه : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، وزُبّ مصلٍّ لأخير فيه، ويوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيهم خاشع .

١ رواه أبو داود رقم ٤٢٥ وهو في صحيح الجامع ٣٢٤٢
٢ قال الهيثمي في المجمع ١٣٦/٢ : رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن وهو في صحيح الترغيب رقم ٥٤٣ وقال:
صحيح

● محله القلب والجوارح تظهره :

قال ابن القيم : "وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره"¹⁵.

وعن سعيد بن المسيب أنه رأى رجلا يعبت بالحصى فقال : "لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه"¹⁶.

● يذهب كلفة ومشقة العبادة ويوصل العبد إلى الالتذاذ بها :

وهي من فوائد الخشوع أنه يخفف أمر الصلاة على العبد قال تعالى : { واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين }^{١٧} والمعنى : "أي مشقة الصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين"^{١٨}.

. ويقول الإمام ابن كثير : "والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وأثرها على غيرها، وحيث تكون راحة له وقرة عين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (..جعلت قرة عيني في الصلاة)"^{١٩}. فبالخشوع يلتذ بصلاته وتكون الصلاة راحة له وقرة عين.

رابعا : قدوات في الخشوع :

نبدأها بقصة مؤثرة في خشوعه صلى الله عليه وسلم : عن عطاء قال : دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال ابن عمير : حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وقالت : قام ليلة من الليالي فقال: يا عائشة ذريني أتعبد لربي، قالت : قلت : والله إني لأحبّ قريبك، وأحب ما يسرك، قالت : فقام فتطهر ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بلّ حجره، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله،

١٥ مدارج السالكين - (١ / ٥٢١)

١٦ السنن الكبرى ت : محمد عبد القادر عطا - (٢ / ٢٨٥)

١٧ [البقرة : ٤٥ - ٤٧]

١٨ تفسير ابن كثير ١ / ١٢٥

١٩ تفسير ابن كثير ٥ / ٤٥٦ والحديث في مسند أحمد ٣ / ١٢٨ وهو في صحيح الجامع ٣١٢٤

تبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ لقد نزلت عليّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكّر ما فيها : { إن في خلق السموات والأرض ... الآية }^{٢٠}

وكان هارون بن رباب الأسدي يقوم من الليل للتهجد فرمّا ردد هذه الآية حتى يُصبح : (قالوا يا ليتنا نُردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين)^{٢١} ويكي حتى يُصبح .

"كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان ساجدا فأتى المنجنيق فأخذ طائفة من ثوبه وهو في الصلاة لا يرفع رأسه، وكان مسلمة بن بشار يصلي في المسجد فأنهض طائفة منه فقام الناس وهو في الصلاة لم يشعر، ولقد بلغنا أن بعضهم كان كالثوب الملقى، وبعضهم ينفتل من صلاته متغير اللون لقيامه بين يدي الله عز وجل . وبعضهم إذا كان في الصلاة لا يعرف من على يمينه وشماله . وبعضهم يصفر وجهه إذا توضأ للصلاة، فقليل له إنا نراك إذا توضأت للصلاة تغيرت أحوالك، قال : إني أعرف بين يدي من سأقوم، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا حضرت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه، فقليل له : ما لك ؟ فيقول : جاء والله وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها . وكان سعيد التنوخي إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته . وبلغنا عن بعض التابعين أنه كان إذا قام إلى الصلاة تغير لونه، وكان يقول : أتدرون بين يدي من أفف ومن أناجي "^{٢٢}.

وقالوا لعامر بن عبد القيس : أتحدّث نفسك في الصلاة فقال : أو شيء أحبّ إليّ من الصلاة أحدّث به نفسي ! قالوا : إنا لنحدّث أنفسنا في الصلاة، فقال: أبالجنة والحدور ونحو ذلك ؟ قالوا لا، ولكن بأهلينا وأموالنا . فقال : لأن تختلف الأسنة فيّ أحبّ إليّ [أي لأن يكثّر طعن الرماح في جسدي أحبّ إليّ من أن أحدّث نفسي في الصلاة بأمور الدنيا] .

وقال سعد بن معاذ : فيّ ثلاث خصال لو كنت في سائر أحوالي أكون فيهن، لكنت أنا أنا : إذا كنت في الصلاة لا أحدّث نفسي بغير ما أنا فيه، وإذا سمعت من رسول الله حديثا لا يقع في قلبي ريب أنه الحقّ، وإذا كنت في جنازة لم أحدّث نفسي بغير ما تقول ويقال لها"^{٢٣}

٢٠ رواه ابن حبان وقال في السلسلة الصحيحة رقم ٦٨ : وهذا إسناد جيد .

٢١ [الأنعام : ٢٧]

٢٢ سلاح اليقظان لطرد الشيطان : عبد العزيز السلطان ص: ٢٠٩

٢٣ الفتاوى لابن تيمية ٦٠٥/٢٢

خامسا : مما يعين على الخشوع

● تذكر الموت (في الصلاة) خاصة وفي سائر أوقاته عامة :

لقوله صلى الله عليه وسلم : (اذكر الموت في صلاتك، فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحريّ أن يحسن صلاته، وصلّ صلاة رجل لا يظن أنه يصلي غيرها)^{٢٤}

● شهود منة مناجاة الله في الصلاة وسماعه في القرآن :

نكتفي في الاستدلال عليه بحديث أنس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل، فإذا قال : الحمد لله رب العالمين قال الله : حمدي عبدي فإذا قال : الرحمن الرحيم، قال الله : أثني عليّ عبدي، فإذا قال : مالك يوم الدين، قال الله : مجّدي عبدي، فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، فإذا قال : إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله : هذا لعبدي ولعبي ما سأل .)^{٢٥}

وقال صلى الله عليه وسلم : (إن أحدكم إذا قام يصلي فإنما يناجي ربه فلينظر كيف يناجيهِ)^{٢٦}
وهي منة عظيمة من الله فلا أقل من نشهدها بقلوبنا.

● أن يعتبر بمراتب الناس في الصلاة :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " والناس في الصلاة على مراتب خمسة :

أحدها : مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني : من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكنه قد ضيّع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوسوس والافكار .

٢٤ السلسلة الصحيحة للألباني ١٤٢١ ونقل عن السيوطي تحسين الحافظ ابن حجر رحمه الله لهذا الحديث .

٢٥ صحيح مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة

٢٦ مستدرک الحاكم ٢٣٦/١ و هو في صحيح الجامع رقم ١٥٣٨

الثالث : من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوسوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد .

الرابع : من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها .

الخامس : من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل، ناظراً بقلبه إليه، مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوسوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قير العين به .

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفّر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه، لأن له نصيباً ممن جعلت قرّة عينه في الصلاة، فمن قرّت عينه بصلاته في الدنيا، قرّت عينه بقره من ربه عز وجل في الآخرة، وقرّت عينه أيضاً به في الدنيا، ومن قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات^{٢٧}

• التفكير في الآيات المقروءة وبقية أذكار الصلاة والتفاعل معها :

قال الله تعالى : { والذين إذا دُكِّروا بآيات ربهم لم يحزوا عليها صمًا وعميانا }^{٢٨} وهي درجة على سموها وعلوها وأهميتها إلا أنها درجة دون التدبر لأن التدبر النظر في العاقبة، وهي أعلى من درجة الإنصات للقرآن بأذن واعية، والنظر فيه بعين مفتوحة، فهذه كلها معناها الفهم عن الله مراده، والتدبر أعلى من الفهم، والعلم بالقرآن . التدبر معناه أن تعيش بالقرآن هم الآخرة، أو معناه أن تتلذذ بالقرآن .

ولكن هذه الدرجة مهمة لحصول التدبر والخشوع، وممهدة لها ولعل هذا ما بينه ابن جرير في قوله : " إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله (أي : تفسيره) كيف يلتذ بقراءته "^{٢٩}

٢٧ الوابل الصيب ص : ٤٠

٢٨ [الفرقان : ٧٣، ٧٤]

٢٩ مقدمة تفسير الطبري لمحمود شاكر ١٠/١

وبلاحظ القارئ أنني لم أجعل من الوسائل المعينة على حصول الخشوع : تدبر القرآن لأنني أردت أن أفرد ذلك في بحث مستقل بحيث أقدم البراهين فيه على أن التدبر الحق للقرآن من شأنه أن يصنع الخشوع صناعة .

المبحث الثاني: التدبر و الخشوع.

أولاً : من أهم خصائص القرآن الخشوع عنده :

قال الله تعالى (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣))^{٣٠}. هذه الآية هي عمدة البحث، وأصله الذي يركز عليه .

جاء في تفسير الطبري " (اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا) يعني به القرآن (مُتَشَابِهًا) يقول: يشبه بعضه بعضاً، لا اختلاف فيه، ولا تضاد.

وقوله: (مَثَانٍ) يقول: تُثنى فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج.

وقوله: (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) يقول تعالى ذكره: تقشعر من سماعه إذا تلى عليهم جلود الذين يخافون ربهم (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) يعني إلى العمل بما في كتاب الله، والتصديق به.

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ) يقول تعالى ذكره: هذا الذي يصيب هؤلاء القوم الذين وصفت صفتهم عند سماعهم القرآن من اقشعرار جلودهم، ثم لينها ولين قلوبهم إلى ذكر الله من بعد ذلك، (هُدَى اللَّهِ) يعني : توفيق الله إياهم وفقههم له (يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ) يقول: يهدي تبارك وتعالى بالقرآن من يشاء من عباده.

وقوله: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) يقول تعالى ذكره: ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن والتصديق بما فيه، فما له من مُوَفَّقٍ له، ومسدّد يسدده في اتباعه"^{٣١}.

٣٠ [الزمر : ٢٣]

٣١ تفسير الطبري - (٢١ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١)

نلاحظ من الآية وتفسيرها أن الذين يخشعون بالقرآن قوم وقعت منهم خاصية التأثير العظيم للقرآن أبلى موقعا، فمدح الله قلوبهم الحية وجلودهم النقية التي أظهرت هذه الخاصية العظيمة في كتابه . مدحها أعظم مدح . ورفع الله قدرهم في الدنيا والآخرة .

ومن تدبر هذه الآية وأمثالها وصلت إلى حقيقة : أن من تدبر القرآن لابد أن يخشع، ومن خشع بالقرآن فقد تحققت فيه كل مقاصد القرآن، وهواه الله بأعظم مظهر من مظاهر هدايته للناس الذي هو القرآن الكريم . والعكس بالعكس فمن لم يخشع بالقرآن فهو على خطر عظيم : أن يكون قلبه قاسيا من ذكر الله، ومن أضله الله . كما في الآية السابقة لهذه الآية^{٣٢}، وكما في خاتمة هذه الآية.

ثانيا: تعريف: التدبر والمقصود بتدبر القرآن

"التدبر عبارة عن: النظر في عواقب الأمور وهو قريب من التفكير إلا أن التفكير تصرف القلب بالنظر في الدليل والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب"^{٣٣}.

المقصود بتدبر القرآن: تقليب القرآن نظر القلب في عواقب الأمور في الدنيا والآخرة .

ثالثا : تبصير القرآن قلب المؤمن بعواقب الأمور يوجد الخشوع لا محالة :

وذلك لأن :

القرآن عندما يبصر بالعواقب فإنما يبصر القلب أولا، وعليه فإذا أبصر القلب بالقرآن عواقب الأمور . فقد تحقق تدبره، ودخل فعليا في هذه العبادة العظيمة . وهي : نظر التدبر أو النظر بالقرآن إلى عواقب الأمور في الدنيا والآخرة . وهذه النظرة القلبية ليست مجرد نظرة فقط كنظر العين، وإنما تكون اعتبارا واتعاظا تاما للقلب . أي تكون عبودية كاملة للقلب، و يكون بذلك قد تحقق

٣٢ قوله تعالى (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) [الزمر : ٢٢ ، ٢٣]

٣٣ التعريفات - علي بن محمد بن علي الجرجاني (١ / ٧٦)

فيه وصف ابن القيم للقلب الخاشع فقال : " وعلامته (خشوع القلب) أن يسجد (القلب) بين يدي ربه إجلالا له وذلا وانكسارا بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه . فهذا خشوع الإيمان . " ٣٤

وهذه الحقيقة قد كنت وجدتها ماثلة بارزة يظهرها القرآن في القلب غاية الظهور وأبينه،
ويقيم حقائقها العملية في القلب أروع إقامة وأرساها وأعمقها، ولقد بحثتها وتحققت كنهها
فترة من الزمن، وعبرت عن هذه التجربة التي لم يكن لي فيها رائد إلا القرآن والقرآن فحسب .
وخلصت فيها إلى :

إن للقرآن أثر حاسم في نقل قلب المؤمن من عالم الغرور والزينة والخداع إلى الحق والحقائق لكي
يتذوق الحقائق!!، أو يستشعر الحقائق.. (وهذه هي النقلة التي ينقلنا إليها . نحن المسلمين . القرآن) .

إن الإيمان ليس إلا تذوقا من القلب واستشعارا للحقائق . وأهم الحقائق الله . سبحانه وتعالى .
بل إن الله هو الحق الذي تستمد منه كل الحقائق حقائقها، وإلا فهي باطل، وهي غرور، وهي
سراب خادع لا حقيقة له .

و القرآن ينقل قلب المؤمن . بالتدبر . من الغرور إلى الحقيقة ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن
عالم المشاهدة إلى عالم الغيب .

والفاعل في هذه النقلة هو الله الحق، محق الحقائق . إن جاز التعبير .، بمعنى : أن الحقائق الإيمانية الأخرى
مثل : اليوم الآخر والجنة والنار تستمد حقيقتها من الله . أي . بعبارة أخرى . : لم تصبح حقا سيتحقق
لا محالة، وسيحقُّ الله به الحق، ويفضح الباطل ويُخزيه، ويُحق عليه العذاب إلا عندما أرادها الله كذلك .

إذا فالله . سبحانه . هو الحق و ما أحقه الله في القرآن هو الحق، وما سوى ذلك فهو غرور وخداع
وباطل .

فيأتي المؤمن إلى هذا الحق المقرر والمؤكد في القرآن فيقره في القلب قرارا مكينا لا يتزعزع . وذلك بتدبر
للقرآن الكريم، وعندما لا يتدبر المؤمن القرآن . حالة كونه مريض القلب غافلا أو ميت القلب فاسدا .

٣٤ كتاب الروح . ابن القيم . ص: ٣١٤ ط . دار الفكر - الأردن .

فإنه يعيش الغرور .. ويعاني الغرور..، ويؤثر الغرور... وحينها لا تنفك جوارحه وحواسه عن مخالطة الزخرف والزينة، وحتى الباطل والحرام.

أما عن الطريقة التي يقر بها القرآن حقائق الإيمان فينا . نحن المؤمنون . بحيث تستقر في أعماق القلوب، وتخالط المشاعر، وتمتزج بالأرواح .

فهي منهجية للقرآن يتميز بها عن غيره .

رابعا : منهجية القرآن في نقل القلب من اللحظة الحاضرة إلى مجال حقائق الإيمان ودرجات الإحسان :

إن قلب ابن آدم تتنازعه قوتان متضادتان في الاتجاه تجذب كل منهما القلب إلى جهتها. وهاتان القوتان هما:

(١) قوة الحق في سطوعه ووضوحه، وشفافيته وصفائه ..، وطهارته ونقاؤه ..، و لطافته ورفافيته..، وسموه وارتفاعه..، وعظمته وقوته..، وأصالته وتجذره..، وشموله وعمومه ..، واتساعه ورحابته..، وسرمديته وأبديته..

(٢) قوة اللذائذ والشهوات والزخرف والمتاع في وزخرفها وبريقها..، وتزينها وبهرجها..، ونعيمها ولذتها..، وحلاوتها وطراوتها...

ويؤيد الشهوات وزينتها الغرائز الموجودة في الإنسان وحبه للذائذ الطعام والشراب والجماع ..

كما يؤيد الحق فطرة الإنسان، وأشواقه الروحية .

فإذا جذبت القلب القوة الأولى قوة الحقائق أثرت فيه صفاء و نقاء ..، وشفافية وحساسية..، وسموا وارتقاء..، فأصبح يحس بالحقائق ويلتذ بها، فيؤثرها على الشهوات واللذائذ الحرام التي قد تفسد القلب، أو الحلال المسرف فيها التي قد تضعف القلب . ومن هذا القبيل أن يستشعر الخشوع ويلتذد بالخشوع.

وإذا جذبته القوة الثانية فإنها تؤثر فيه غلظة والتصاقا بالأرض وإثارا للشهوات والملذات، فيصبح لا يحس بالحقائق، بل يسعى للشهوات، لا يحس بالسعادة ولا بالراحة إلا بها.

والقرآن كتاب الله جاء ليخلص القلب من غطاء الغلظة والبهيمية التي يمكن أن تكون قد غلّفته به الشهوات، وذلك بهدم كل بناء تقيمه الشهوات على أرضية القلب، يهدمه في التصور والشعور، وفي القلب والضمير، وفي الحضور والظهور. ليقيم على أنقاضه النظام الإلهي، نظام الحقائق، وبوسيلة يمكن أن نصطلح على تسميتها الهدم ثم البناء .

فإذا كان الإنسان مجبول على حب الشهوات، وتعظيمها والولوع بها، وطلبها والاستغراق فيها، والتشبث بها، بحكم تكوينه الغرائزي، وتركيب الشهوات فيه، فإن الله في قرآنه يأتي على نظام الغرائز من أساسه و أصوله، فيهدمه في أرضية القلب .. يهدمه في التصور والشعور، وفي القلب والضمير، وفي الحضور والظهور، ويحطمه بعد قيامه ومثوله، بقوارع مزلزلة . ولا ينفع في قمع الشهوة الغليظة الهائجة إلا القوارع والزلازل . والقوارع هي الموت .. القيامة .. البعث والنشور .. عرصات القيامة .. الميزان .. السراط .. الجنة والنار . ووراء هذه القوارع القوية الحق . سبحانه .. الذي تستمد منه هذه القوارع قوة قرعها وطمها وزلزلتها.

مثال لوقع حقائق الآخرة المزلزلة على القلب :

قول الله تعالى :

يقول صاحب الظلال في قوله تعالى : " { إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً } .

والأنكال هي القيود والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلق والعذاب الأليم . . كلها جزاء مناسب { لأولي النعمة } ! الذين لم يرعوا النعمة، ولم يشكروا المنعم، فاصبر يا محمد عليهم صبراً جميلاً وخل بيني وبينهم . . .

ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف :

{ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً } . .

فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر مجالها [الأرض والجبال] . فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهزلة الضعاف!

ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع، إلى المكذبين أولي النعمة، يذكرهم فرعون الجبار، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار :

{ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وببلاً } . هكذا في اختصار يهز قلوبهم ويخلعها خلعاً، بعد مشهد الأرض والجبال وهي ترجف وتنهار .

فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا؛ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعب؟

{ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به؟ } . .

وإن صورة الهول هنا لتتشق لها السماء، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان . وإنه لهُول ترتسم صورته في الطبيعة الصامتة، وفي الإنسانية الحية . . في مشاهد ينقلها السياق القرآني إلى حس المخاطبين كأنها واقعة . . ثم يؤكد تأكيدهم . { كان وعده مفعولاً } . . واقعاً لا خلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان! "٣٥

إن هذه القوارع التي يمتلئ بها القرآن تزلزل النفس وتوجل القلب، وتُخشع الحس . . فيتخلص عند ذلك القلب من غطاء الشهوات الغليظ، وتتخلص النفس من التمسك بالشهوات والتشبث بها وتشهيقها، ويفقد الواقع بمرجه وزخرفته وزينته، ويتحول في حس صاحب القلب المتعظ المنتفع بزواجر القرآن إلى حطام وركام وهباء . . تماماً كما هو حاله في مصيره المحتوم يوم القيامة .

وعند ذلك يأتي القرآن ليقيم نظامه . على أنقاض هذا النظام البائد . على أرضية القلب، يأتي ليقيم نظام الروحانيات، نظام الحق والعدل وإيثار الآخرة والاستعداد لها، نظام تلبية اللذائذ والغرائز بالحلال، وعند ذلك يأتي خوف الله وخوف عقابه، ويأتي رجاء الله وثوابه، ويأتي حب الله وتعظيمه، وتأتي خشية

الله والحياء منه، ويأتي تقديس الله وتنزيهه وتوقيره . فنعيش . بتدبر القرآن . حقائق الإيمان ونفعلها فينا بعد أن اعتنقناها، وآمنا بها، وننفي بذلك . أيضا . عن أنفسنا الغرور بعد أن كفرنا به وتبرأنا منه.

فإن لم يكن القلب قد وصل إلى درجة أن تُكَوَّن عليه الشهوات والزينة غلافا غليظا، بل احتفظ برقته، فإنه في هذه الحالة يكفيه مجرد تذكيره من القرآن بالحقائق الإيمانية لأن [التذكير بالحقائق الإيمانية يحضرها للقلب حضورا يوازي حضور الزخرف والزينة للحس، فإذا حضرت للقلب أحس بها واستشعرها فعند ذلك تغلب حقيقة الغيبي في القلب على غرور وخداع زخرف الدنيا وزينتها، وإن كانت مشاهدة ملموسة، لأنها . باعتبارها طرفا نقيضا لحقائق الإيمان . باطل والباطل يزهق أمام الحق. قال تعالى (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) [٣٦] ٣٧

وإذا فإن القرآن ينقلنا نقلات هائلة في مجال التزكية في لحظات قليلة، من الغرور إلى الحق ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن عالم المشاهدة إلى عالم الغيب. ولهذه النقالات ثمار أهمها الخشوع.

لأن القرآن يجعلنا نعيش في جو لا يملك فيه القلب إلا أن تصدعه زواجر القرآن.

خامسا : ابن القيم يقرر حصول حقائق الخشوع للمؤمن بالتدبر.

كانت هذه تجربة تدبرية لي عشت ثمارها العملية في مجال الإيمان والخشوع، واطمأنت إلى صدق آثارها العملية، منذ المراحل الأولى فيها.

وعندما شرعت في إخراجها بصورة علمية، وبدأت في الاستدلال لها بآيات القرآن وأقوال العلماء دهشت دهشة شديدة، وسرت أعظم السرور عندما وجدت أن الذي وصلت إليه بالتدبر يقرره ابن القيم في كتبه تماما ويزيد عليه ..

لقد شعرت بمشاعر لا توصف من الرضا عن هذه التجربة التدبرية، وازدادت قربا من تدبر القرآن عندما وجدت أن تدبر القرآن آخى روحيا بيني وبين العالم الجهبذ .. حبر العلوم، والمجاهد الرباني ابن القيم الجوزية.

٣٦ سورة الأسراء . آية: ٨١

٣٧ أساليب الوعظ والتذكير بالقرآن . رسالة ماجستير. عبد الجبار عبد الله القباطي . ص ١٠٢

وإثباتاً لأهم نتائج البحث وهي : أن تدبر القرآن يوصل حقائق الخشوع إلى القلب فيثبت قواعد الإيمان فيه، ويشهد المتدبر الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها ..

أورد هذه النفائس للإمام ابن القيم في ذلك .

يقول ابن القيم : "وأما التأمل في القرآن : فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع

الفكر على تدبره وتعقله وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب)^{٣٨}

وقال الحسن : نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته : من تدبر القرآن وإطالة التأمل، وجمع منه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذاقهما وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلتهما وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه وترية صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه

فتشاهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فترية الحق حقاً والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً فيصير في شأن الناس في شأن آخر...^{٣٩}

وقال رحمه الله :

"فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير فإنه جامع لجميع منازل السائرين واحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والانابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الاحوال

التي بها حياة القلب وكماله وكذلك يزجر عن جميع الصفات والافعال المذمومة والتي بها فساد القلب
وهلاكه فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها" ⁴⁰.

المبحث الثالث: توليد الإيمان وتفعيله

تمهيد:

المؤمن هو الذي يعزى إليه مهمة تحديد الحياة وتنميتها استنادا إلى تميزه الإيماني، وسلوكه التعبدية. ولكن ذلك لا يحصل إلا وفق سنن الله في الحياة وفي الكون، فهيئات أن يقوم المؤمن بتحديد الحياة وهو لم يجدد إيمانه، ولذلك فقد جعل الله له من العبادات ما يجدد بها إيمانه وأهمها الصلاة لتكرارها وأسرارها، وأعظم ما في الصلاة وفي العبادات الخشوع عند ذكر الله في هذه العبادات .

فإن كان المؤمن لديه القدرة على تحديد إيمانه وتنمية يقينه بمنهج عملي واضح للخشوع، فهو مؤهل لقيادة البشرية حضاريا، لأن عنده أساس الحضارة الأول وهو العبادة الحقة. قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)^{٤١}

المطلب الأول: استحضار حقائق الإيمان يوجد الخشوع.

الملاحظ لموارد الخشوع في القرآن يجد أن القرآن يربط بين الخشوع وبين حقائق الإيمان، فحيثما يذكر القرآن خشوع عبد من عباد الله، أو خشوع فئة من المؤمنين و خشيتهم لله يقرن هذه الخشية وهذا الخشوع بما يدلنا على سبب هذه الخشية وهذا الخشوع، وهو استحضارهم لحقائق الإيمان الغيبية : التي أهمها الله واليوم الآخر، واستشعارهم لها، ويقينهم بها في تلك اللحظات.

وذلك نجده في كثير من الآيات، منها:

قول الله تعالى (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)^{٤٢}

٤١ [النور : ٥٥]

٤٢ [البقرة : ٤٥ - ٤٧]

جاء في تفسير البغوي : " { الَّذِينَ يَظُنُّونَ } : يستيقنون [أنهم مبعوثون وأنهم محاسبون وأنهم راجعون إلى الله تعالى]، أي: يصدقون بالبعث.^{٤٣}

فسبب خشوع هذه الفئة في صلاتهم هو يقينهم بالبعث والحساب.

فانظر كيف يدلنا القرآن على صناعة الخشوع، ويسرها بحيث يجعل سبب تحصيل الخشوع عملاً واجباً من أعمال القلب وهو التصديق بالبعث. وهو شرط للإيمان متحقق عند كل مؤمن، فلا يحصل الإيمان إلا به. إذن فليس المطلوب إلا استحضار التصديق بالبعث واليوم الآخر: هذه الحقيقة الإيمانية المتحقق أصلها في كل مؤمن، فإذا استحضرها المؤمن في قلبه حصل الخشوع .

المطلب الثاني: بين اليقين والخشوع والاطمئنان لذكر الله.

الفرع الأول : كيف يحضر اليقين الخشوع:

إن حقائق الإيمان الغيبية ستحق لا محالة بحيث تراها كل العيون يوم القيامة، سواء المصدقة بها والمكذبة. هذا ما يؤمن به ويعتقده المؤمن.

وهذا الإيمان قد يبدأ عند المؤمن بمجرد علم، ولكنه علم يقين ... علم بمعلوم آت لا محالة ... لا شك في رؤيته وحصوله يوم القيامة. هذا هو ما يجعل حقائق الإيمان بالله واليوم الآخر ... الخ يقين عند المؤمن. و القرآن يسمي حقائق الإيمان "علم اليقين" من هذا المنطلق.

يقول الله تعالى (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤))^{٤٤}. وقال تعالى (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩))^{٤٥} وقال تعالى (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١))^{٤٦}

٤٣ تفسير البغوي - (١ / ٩٠)

٤٤ [الأنعام : ١٣٤]

يقول ابن كثير في تفسير الآية الأخيرة: "يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة" ^{٤٧}.

فكيف يكون قلب المؤمن أثناء قراءة هذه الآيات وأمثالها التي تذكر بالله واليوم الآخر... كحقائق متيقن الوجود عليها !!!

● إن كون عرصات اليوم الآخر آتية لا محالة ... متيقنة الحدوث يحضر الخشوع إلى القلب. ويجعل المؤمن أهم ما يهمله هو كيف سيكون حاله ومصيره في ذلك اليوم . بمعنى أن يقينه بالله وباليوم الآخر ينقل قلبه مباشرة إلى أن يعيش هم الآخرة، وأجواء الآخرة، وشدائد الآخرة. فيتجاوب القلب بالوجل، والعين بالدمع، والجوارح بالقشعريرة والارتجاف، وهذا هو الخشوع .

● وهذا التجاوب من القلب ثم من الجوارح إذا حصل، حصل التوافق والتطابق بين يقين المؤمن العقلي (علم اليقين) وبين شعوره القلبي بهذا اليقين (عين اليقين أو يقين القلب). وبهذا يحصل الاطمئنان لموافقة السلوك القلبي (الخشوع) للقناعة العقلية، وهي أول درجات الاطمئنان. قال تعالى ((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ^{٤٨})).

● ثم يتلفت قلب المؤمن باحثاً عما يدفع به سوء عاقبة هذه المتيقنات كلها، فلا يجد أوثق له من الله، فيتعلق برحمته وفضله أشد التعلق، ويرغب إليه أشد الرغبة، ويرهبه أشد الرهبة.

● وهنا يشعر المؤمن أن علاقته بالله أعظم وأوثق وأهم وأسمى وأصدق من جميع علاقاته بمن حوله وما حوله من الأشخاص والأشياء، فهو لا يجد الأمن من خوفه اليقيني إلا عند الله، ولا يثق في حيلة ولا في قوة، بل لا يجد له حول ولا قوة على دفع هذه المتيقنات إلا بالله، فلا يصبح له رجاء أعظم من رجائه في رحمة الله وفضله ومغفرته . وهذا ما يمكن أن نطلق

٤٥ [غافر : ٥٩]

٤٦ [النحل : ١، ٢]

٤٧ تفسير ابن كثير / دار طيبة - (٤ / ٥٥٥)

٤٨ [الرعد : ٢٨]

عليه توحيد الطمأنينة، ولعل قول الله تعالى على لسان أهل الجنة وهم يذكرون حالهم في الدنيا (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦))^{٤٩} من هذا القبيل.

يقول ابن كثير في تفسيرها : "أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه"^{٥٠}.

فانظر إلى قولهم (فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) فوجودهم وسط أهلهم لم يكن يجلب لهم الطمأنينة من خوفهم اليقيني من الله واليوم الآخر . ولا يجلب لهم الطمأنينة الإيمانية إلا طاعة الله وعبادته .

- طاعة الله وعبادته التي دفعهم إليها خوفهم اليقيني هي حق يقين عاشوه مع الله.

يقول السعدي في تفسير قوله تعالى (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥))^{٥١} " { إِنَّ هَذَا } الذي ذكره الله تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفاصيل ذلك { لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ } أي: الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأهم ذائقون له مشاهدون له"^{٥٢}.

وهذه الطاعة لا شك تزيد في الطمأنينة الإيمانية ؛ لأنهم هاهم يتطابق فيهم اليقين العقلي (علم اليقين) مع اليقين القلبي (عين اليقين) مع اليقين العملي (حق اليقين)، وهي درجة أعلى في طمأنينة القلب بذكر الله. (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (٢٨)^{٥٣}.

الفرع الثاني : يحصل اليقين بتدبر القرآن :

يقول الله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)^{٥٤}.

٤٩ [الطور : ٢٦]

٥٠ تفسير ابن كثير / دار طيبة - (٧ / ٤٣٥)

٥١ [الواقعة : ٩٥]

٥٢ تفسير السعدي - (١ / ٨٣٦)

٥٣ [الرعد : ٢٨].

٥٤ [الرعد : ٢٨]

يقول الإمام البغوي في تفسيره لهذه الآية:

"{ وَتَطْمَئِنُّ } : تسكن { قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ } قال مقاتل: بالقرآن، والسُّكُون يكون باليقين، والاضطراب يكون بالشك، { أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } : تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين."^{٥٥}

ويقول ابن قيم في الآية :

"الطمأنينة : سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه .

.....

[و] ذكر الله ههنا : القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن . فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به وهذا القول هو المختار"^{٥٦}.

المطلب الثالث : رياضة الخشوع:

إذن باستثمار واستحضار المؤمن يقينه بالله وبالיום الآخر يحصل الخشوع.

وإذا ليس بين المؤمن وبين الخشوع . متى ما توجه قلبه إليه . إلا رياضة للقلب يستحضر بها حقائق الإيمان الغيبية بواسطة يقينه بها . والقرآن هو الذي يدخل اليقين بحقائق الإيمان إلى قلبه بعد تيقنها بعقله، يحصل ذلك بتدبر القرآن .

٥٥ تفسير البغوي - (٤ / ٣١٥)

٥٦ مدارج السالكين - (٢ / ٥١٢ ، ٥١٣)

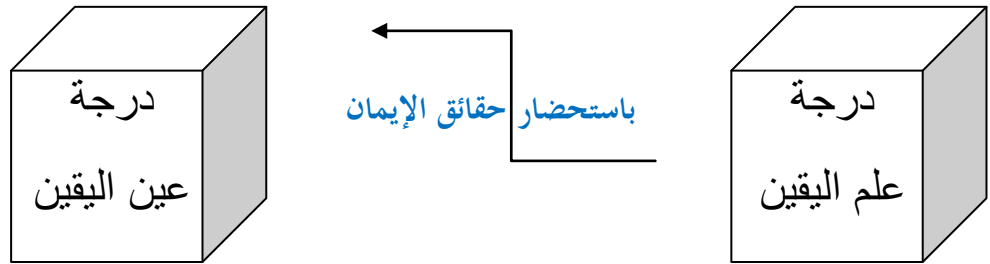
وأقصد بريضة القلب هنا الإتيان بسبب الخشوع. فإذا كان سبب الخشوع هو استشعار تعظيم الله في القلب فإن المؤمن يستطيع استحضار الخشوع باستحضار حقيقة عظمة الله في القلب. وهكذا إذا كان سبب الخشوع هو استحضار اليوم الآخر....

واستحضار عظمة الله أو اليوم الآخر. وهما من حقائق الإيمان الغيبية. المتيقنة يجعل قلب المؤمن يعيش في جو الحقيقة الإيمانية، وكأن الحقيقة الإيمانية واقعا معاشا للقلب في تلك اللحظة.

الفرع الأول: من علم اليقين إلى عين اليقين:

فإذا راض^{٥٧} المؤمن قلبه الرياضة السابقة، وأحضر الحقيقة الإيمانية (كالبعث) بالتدبر، حتى كأنه يعايشها ويشاهدها. ويعينه على ذلك يقينه أنه سيشاهدها بعينه حقيقة يوم القيامة. أقول. : إذا حاول المؤمن ذلك وأصبح كأنه يشاهد البعث فقد انتقل بهذه الرياضة من درجة علم اليقين إلى درجة عين اليقين.

ويمكن تصوير هذه العملية بالشكل التالي:



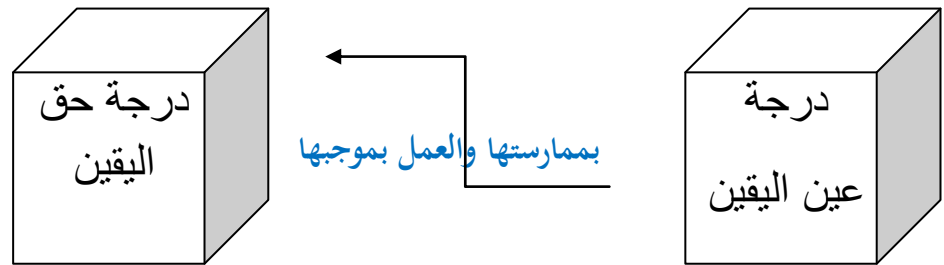
رسم توضيحي 1

الفرع الثاني: من عين اليقين إلى حق اليقين :

٥٧ راض المهر رياضا ورياضة : دَلَّله فهو راضُ القاموس المحيط - (١ / ٨٣١)

وإذا استدام المؤمن هذه الخشية وهذا الخشوع وأصبح قلبه يشعر بهذه الحقائق كأنه يشاهدها فإنه . ولا شك . سيتأثر بها.

فحضورها في قلبه سيجعله يعمل لأجلها، ويستعد لها، فيصبح بهذه الرياضة كأنه يعايش حقائق الإيمان. وهو ما يمكن أن نطلق عنه: درجة حق اليقين. فإن كل حق عشت لأجله وأنت توقن أنه يقين فهو حق يقين بالنسبة إليك، وهنا ينتقل المؤمن بإيمانه بهذه الرياضة من درجة عين اليقين إلى درجة حق اليقين.



رسم توضيحي ٢

الفرع الثالث: الاستدلال على شرعية المطلوبات الثلاثة.

لقد ذكر الله علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين في سياق التحذير من يوم القيامة، وقد ذكر المرتبتين الأوليين في سورة التكاثر في قوله تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)).^{٥٨} والثالثة في سور كثيرة منها سورة الواقعة في قوله تعالى (إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥))^{٥٩} والحاقة وغيرها.

- "وعلم اليقين: هو العلم الذي لا يخالطه شك، وهو واقع لا محالة.
- وعين اليقين: هو العلم عندما يقع وتخالطه العيون بالمشاهدة والمعاينة.

٥٨ [التكاثر : ٥ - ٧]

٥٩ [الواقعة : ٨٣ - ٩٥]

• وحق اليقين: هو العلم عندما يقع وتخالطه جميع الحواس، فتصبح الحواس في وسط المعلوم وتخالطه وتحسه.^{٦٠}

وهنا يأتي سؤال: هل هذه الدرجات الثلاث في العلم مما هو متاح للمؤمن أن يصل إليها في الدنيا؟؟

فإن كانت الإجابة بالإيجاب فلا حاجة للاستدلال إذن . وإن كانت الإجابة بالنفي احتجنا إلى الاستدلال . ومن الاستدلال على شرعية المطلوبات الثلاثة:

(١) أن مرتبة علم اليقين مما لا خلاف على كونها مطلوبا شرعيا، ومتاحا للمؤمن بلوغها في الدنيا.

وإذا كانت كذلك فالقول بأن الدرجتين الآخرين ليسا متاحين تحكم لا دليل عليه. إذ كيف يفرق بين علمين مضافين إلى نفس المسمى: فيقال أن علم اليقين مطلوبا شرعيا وعين اليقين ليس بمطلوب ولا متاح في هذه الدنيا والعلمان ذكرا في سورة واحدة وحثت السورة عليهما بنفس الأسلوب.

وبالمثل كيف يفرق بين أسماء ذكرت في القرآن مضافة . كلها . إلى اليقين فيقال في أحدها أنها مطلوبة في الدنيا ومتاح للمؤمن الوصول إليها (وهي علم اليقين)، ويقال في الآخرين (عين اليقين وحق اليقين) عكس ذلك.

(٢) أن الله ذكر هذه الثلاث الدرجات في اليقين باليوم الآخر، وذكر أن هذا اليقين سيتحقق فينا يوم القيامة ؛ وفي ذلك اليوم يستوي في التحقق بها المؤمنون والكافرون، ويكون التحلي والتحقق به لا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا . إذن فقد ذكرت في القرآن لكي نتحقق بها في الدنيا، أي: في الوقت الذي ينفع التحقق بها.

(٣) إن دور الإيمان واليقين في الدنيا هو التغلب على رغبات وأخطار الحياة الدنيا . مهما كانت هذه الأخطار والرغبات . عندما تتعارض مع مصالح وأخطار الآخرة ، وهذا معناه غلبة هم الآخرة في القلب على ما سواه من الهموم، وغلبة خطر الآخرة على ما سواه من الأخطار، وغلبة الرغبة في ما عند الله من النعيم على ما سواه من نعيم الدنيا.

وعليه فإذا كانت أخطار الدنيا بالنسبة للمؤمن عين يقين، فلن يتغلب عليها خطر الآخرة إلا إذا صار عند المؤمن في درجة عين اليقين، وهكذا في حالة أن يكون خطر الدنيا أو نعيمها حق يقين (بمعنى واقعا معاشا) فلن يتغلب عليه يقيننا إلا إن كان في درجة حق اليقين .

والقرآن الكريم يركز كثيرا على هذا الاستعلاء الإيماني على شهوات وأخطار الدنيا عندما يقص علينا قصص القدوات العليا في الإيمان . ومن ذلك: ما حدث من السحرة المؤمنون من قوم فرعون عندما لم يأبهوا بتهديد فرعون لهم بالقتل والصلب فقالوا ما أخبرنا الله عنهم (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) ٦١)....

: ومن ذلك ما وقع من المؤمنين في قصة أصحاب الأخدود فقد فضلوا الموت حرقا على الرجوع عن دينهم الحق. قال تعالى (فُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) [البروج : ٤ - ٩]) .

فقد استهانوا بالأخطار الحاضرة وتحملوها بكل شجاعة وصبر ورضى .

وما وقع منهم ذلك إلا عندما حضر خطر الآخرة في قلوبهم بنفس درجة حضور خطر الدنيا . أفصده . درجة المشاهدة، والتي هي عين اليقين، أو درجة الإحساس والمخالطة بالقلب، والتي هي حق اليقين.

(٤) درجة الإحسان في العبادة التي عرفها رسول الله، وسأل عنها جبريل، هي أعظم دليل على أن الدرجات الثلاثة مطلوب التحلي بها والتحقق بها في الدنيا. (قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) ٦٢

الفرع الرابع: الفرق بين الدرجات الثلاثة في رياضة الخشوع:

٦١ [طه : ٧٢]

٦٢ صحيح البخاري ت - (١١ / ٥٧٨)

وإذا كانت الدرجات الثلاثة في اليقين مطلوب التحلي بها والتحقق بها في هذه الدنيا، فمعنى ذلك أن كل درجة من هذه الدرجات في العلم يقابلها درجة من درجات العمل.

ونحن نستطيع أن نحدد العمل المقابل لكل درجة عندما نجعل العمل وسيلة لتحصيل هذه الدرجة من اليقين. وهذا هو ما قصدناه برياضة الخشوع: أن تكون كل درجة عليا من اليقين يقابلها زيادة في طلب العلم والعمل أكثر مما كان عليه الطلب في الدرجة التي قبلها، كما يقابلها قوة في التحصيل والطلب عنه في الدرجة التي قبلها. وذلك كالتالي:

أولاً: درجة علم اليقين: يقابلها طلب علوم الآخرة إلى أن تصبح يقينا لا شك فيه، وهو ما يمكن أن نسميه يقين العقل.

ثانياً: درجة عين اليقين: يقابلها استحضار هذه الحقائق للقلب حتى كأنها رأى عين، وذلك بالعبادة والخشوع فيها. وهو ما يمكن أن نسميه يقين القلب.

ثالثاً: درجة حق اليقين: يقابلها استدامة استشعار هذه الحقائق بحيث تلازم القلب أفراحاً وأتراحاً، وبحيث تصبح هي أكبر همه، ومبلغ علمه، وغاية رغبته، ثم تنعكس تلك المعرفة على الجوارح إخباراتاً وعملاً. وهو ما يمكن أن نسميه حق اليقين أو يقين الجوارح.

المبحث الرابع : بين طمأنينة الإيمان ودرجات الإحسان

تمهيد:

يعيش المؤمن طمأنينة إيمانية منقطعة النظير، بحيث مهما أصابه من فقر أو مرض أو قروح أو بلاء في مقارعة الأعداء، فإنه يكون في غاية السكينة النفسية والرضا والاطمئنان القلبي، ومصدر هذه الطمأنينة هو الإيمان، وهذه الطمأنينة الإيمانية وإن كانت شعورا إيجابيا، يجعل المؤمن قادرا على الإنتاج في أحلك الظروف، وأشد الأزمات؛ إلا أنها طمأنينة سلبية، بمعنى أنها لم تحصل بطلب مباشر من المؤمن لها، وسعي هادف منه إلى تحصيلها، وإنما جاءت كردة فعل إيمانية على أصناف البلاء والابتلاء. فهي في هذه الحالة أشبه بالصبر والسلوان. وهي مع ذلك تعد أساسا للترقي الإيماني والإحسان في العبادة لله.

المطلب الأول: الطمأنينة الإيجابية والترقي :

أما الطمأنينة الإيجابية فهي تلك التي تحصل بطلب من المؤمن. وتحصل الطمأنينة في المؤمن عندما تتخالط قلبه حقائق الإيمان، وهي حالة لها دور فاعل جدا في الترتي في مراتب الإيمان ودرجات الإحسان.

فإن حقائق الإيمان إذا وصلت إلى القلب استشعرها وتذوقها...

ثم هو بعد ذلك قد يعمل لها، وقد يشغل عنها...

فإن كان في جو العمل لها اطمأن وسكن وارتاح ونشط.

وإن مرت أوقات شغل عن العمل لها أحس بالحزن وعدم الراحة والاطمئنان حتى يؤوب إلى داعي الإيمان في قلبه.

فالطمأنينة الإيمانية تجعل المؤمن منطلقا بين حالين اثنين كل منهما يؤثر إيجابا في الترتي الإيماني والعبادي، والحالان هما:

● حال اطمئنان القلب للإيمان.

• حال قلق القلب لفوات حال الاطمئنان.

الفرع الأول: حال اطمئنان القلب للإيمان

فعندما يعيش المؤمن حقائق الإيمان، ويستشعرها في قلبه، يجد قلبه يطمئن كلما كان عمله مترجماً لهذا الإيمان ومعبراً عنه، ولعل قول الله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) يتضمن مثل هذا الحال . فيكون هذا الاطمئنان عاملاً على دوام العمل، يذهب نفور النفس عن الطاعة، ويسلس قيادها للعبادة.

الفرع الثاني: حال قلق القلب لفوات حال الاطمئنان:

فهو على العكس من الحال الأول، فالمؤمن الآن عمله لا يطابق يقينه، ولأجل هذا يحس المؤمن بالقلق، ويشعر بالألم عندما تهبط أعماله عن مستوى ما يستشعره في أعلى أحواله الإيمانية من : رقي إيماني .
: ويقظة تعبدية.

وهذا هو المقصود بالحديث الذي يرويه أبو موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن"^{٦٣}

فإن هذه الحالة تكون دافعا له، ونازعا ينزعه نحو الإيمان والعمل الصالح.

وبهذا يعد خلق اطمئنان القلب للإيمان من أعظم المولدات الإيمانية الدافعة إلى حسن العمل، والاجتهاد فيه.

الفرع الثالث : اطمئنان الإيمان وأهمية المعرفة النظرية لمراتب الإيمان ودرجات الإحسان:

^{٦٣} صحيح ابن حبان بتحقيق الأرناؤوط - مطابق للمطبوع - (١٥ / ١٢٢) قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح . وفي سنن الترمذي - (٤ / ٤٦٥) عن عمر بلفظ . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وعن عمر "سنن النسائي الكبرى - (٥ / ٣٨٧) . وعن عمر "المستدرک - (١ / ١٩٩) . تعليق الذهبي في التلخيص : وهذا صحيح "، وعن عمر في "السنن الكبرى للبيهقي . ط المعارف بالهند - (٧ / ٩١) .

اعتنى القرآن الكريم كثيرا بمراتب الإيمان ودرجات الإحسان (كالتقوى والصبر والتوبة والإحسان ...) ومدح أهلها وشوق إليها مرارا وتكرارا، لأن ذلك يجعل المؤمن يطلبها، ويسعى للعيش في أجوائها، وهو كلما سعى إليها وترقى في مدارجها اطمأن قلبه إليها، فلم يعرف السعادة ولا الراحة ولا القرار ولا الاطمئنان إلا في أجوائها .

والمؤمن كلما عرف مراتب الإحسان اشتاق قلبه إليها، وتاقت روحه للوصول إليها، وتحفزت قواه للسعي والتعب في طلبها، وكلما حصل شيئا منها استحالت المرتبة المتحصلة إلى موطن لاطمئنان القلب، فلا يطمئن إلا فيه ولا يطمئن لما دونه ... وهكذا يبقى قلب المؤمن في سعي حقيقي، وترقي دائم، وصعود في مراتب الإيمان ودرجات الإحسان.

المطلب الثاني: نظام حركة التزكية الذاتي (دينامو التزكية) في الإسلام (علاقة الخشوع بالتزكية):

من سنن الله العامة في الحياة سنة ارتباط التجديد والتطوير والتنمية والزيادة بالحركة، فكلما نشطت الحركة في نظام نما وازدهر، وكلما ساد الخمول والكسل وضعفت الحركة في نظام فسد وأسن وأصابه الخلل والأعطاب و الضمور والإضمحلال.

ومن أنظمة الإسلام التي تسري عليها هذه السنة نظام التزكية في الإسلام ؛ ونظام التزكية جليل واسع، يصعب الإحاطة به، ومتابعة حركته، ولكن حسبنا في هذا البحث المختصر أن نتبع وندرس نظام حركته الذاتي (دينامو التزكية)، التي تعبر عن جوهر عملية التزكية.

إن نظام الحركة الداخلي لتزكية النفس نظام يعتمد على حركة تفاعلية متكاملة الأدوار متبادلة التأثير بين أعمال القلب وأعمال الجوارح.

ويمكن بيان النظام الداخلي للتزكية في الإسلام في النقاط المبسطة التالية :

. ركني التزكية القلبي والمجترح .

. العلاقة بين الركنين .

. وتأثير كل منهما على الآخر.

الفرع الأول: ركنا التزكية عبادة القلب وعبادة الجوارح

أقصد بركني التزكية: عبادة القلب وعبادة الجوارح.

قال الله تعالى (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١٢٩) ^{٦٤}

(أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس قال: "يتلو عليهم آياتك ويزكيهم" قال، يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص) ^{٦٥}.

ونلاحظ أن ابن عباس عرف التزكية بمكونيها الأساسيين وهما :

- (١) الإخلاص. وما يهمنا إثباته في هذا المكون هو أنه عبادة قلبية، وأن محله القلب.
- (٢) طاعة الله . والمقصود بها هنا :عبادة الجوارح حتى تفترق عن الإخلاص في كلام ابن عباس، وتكون قسيما له (القسم الآخر للتزكية غير الإخلاص). وإلا فإن الإخلاص . أيضا . : طاعة لله تعالى. فقد أمرنا الله به في قوله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ^{٦٦} فالإتيان به طاعة لأمر الله. فما يفترق المكونان إلا في أن أحدهما عملا للقلب والآخر عملا للجوارح.

الفرع الثاني: العلاقة بين ركني التزكية (كيفية عمل النظام) .

إن تحديد ورسم العلاقة بين المكونين المتحركين لنظام . هذا النظام . لا يقوم إلا عندما تكون مكوناته في حالة حركة يعطينا وصفا لكيفية عمل النظام، ونظام حركته، وهذا ما يقال في مكوبي نظام التزكية،

٦٤ [البقرة : ١٢٩ ، ١٣٠]

٦٥ تفسير الطبري - (٣ / ٨٨)

٦٦ [البينة : ٥]

فالعلاقة بين مكوني نظام التزكية القلبي والجسدي، يجعلنا على علم كيف نحقق التزكية، و نفعلها، ونضاعف أثرها في أنفسنا.

و عليه فسيكون تحديد العلاقة بين المكونين يتناول الرابط بينهما في أثناء عملية التزكية، وهذا الرابط لا يمكن أن نجد ما يوضحه بجلاء ودقة مثل القرآن، كتاب الله المتخصص في التزكية.

ويظهر من قوله تعالى (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)^{٦٧}

أن الهدف من أعمال الجوارح (الصَّلَاة) :

• استجلاب أعمال القلوب (ذكر القلب لله).

وتحصيل أعلى كمال فيها (الخشوع). قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي

صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢))^{٦٨}

قال ابن جرير الطبري في تفسير (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)^{٦٩}: "معنى ذلك: أقم الصلاة لي فإنك إذا أقمتها ذكرتني"^{٧٠}. وذكر الله كما أسلفنا أعظم ما يجلب الخشوع .

في الحين الذي تكون فيه:

الإعمال القلبية (ذكر القلب لله وغايته الخشوع) بالنسبة لأعمال الجوارح (الصلاة) كالروح بالنسبة للجسد.

الفرع الثالث: تأثير كل ركن من أركان التزكية على الآخر

أولاً: تذكر القلب موجب لعمل الجوارح

٦٧ [طه : ١٤]

٦٨ [المؤمنون : ١ - ٣]

٦٩ [طه : ١٤]

٧٠ تفسير الطبري - (١٨ / ٢٨٣)

القلب إذا تذكر أثر هذا التذكر انشغال الجوارح بطاعة الله والاستعداد لليوم الآخر.

أخرج البخاري ومسلم عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)^{٧١}

وقد ذكر الشيخ السعدي في تفسير قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى }^{٧٢} هذا التأثير من القلب على الجوارح. فقال: { وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } أي: اتصف بذكر الله، و انصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة^{٧٣}.

ثانياً: طاعات الجوارح تزيد الإيمان

هذا هو معنى القاعدة المشهورة عند أهل السنة أن : الإيمان يزداد بالطاعات وينقص بالمعاصي. قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ((٢))^{٧٤}

هذه آية تصف السلوك القلبي الإيمانى للعبد عندما يذكر الله سبحانه . وهو من أعمال الجوارح ، وعند تلاوة القرآن . وهو أيضا من عبادة الجوارح . والآية تنص على أن القلب يجل : أي يخاف عندما يذكر الله، وأن الإيمان القلبي الذي هو التصديق يزيد عند تلاوة القرآن.

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس في هذه الآية قوله: "وصف المؤمنين فقال: "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم"، فأدوا فرائضه "وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً"، يقول: تصديقاً.^{٧٥}

٧١ صحيح البخاري (١ / ٥٦)، ومسلم (٥ / ٥٠)

٧٢ [الأعلى : ١٤ ، ١٥]

٧٣ تفسير السعدي - (١ / ٩٢٠)

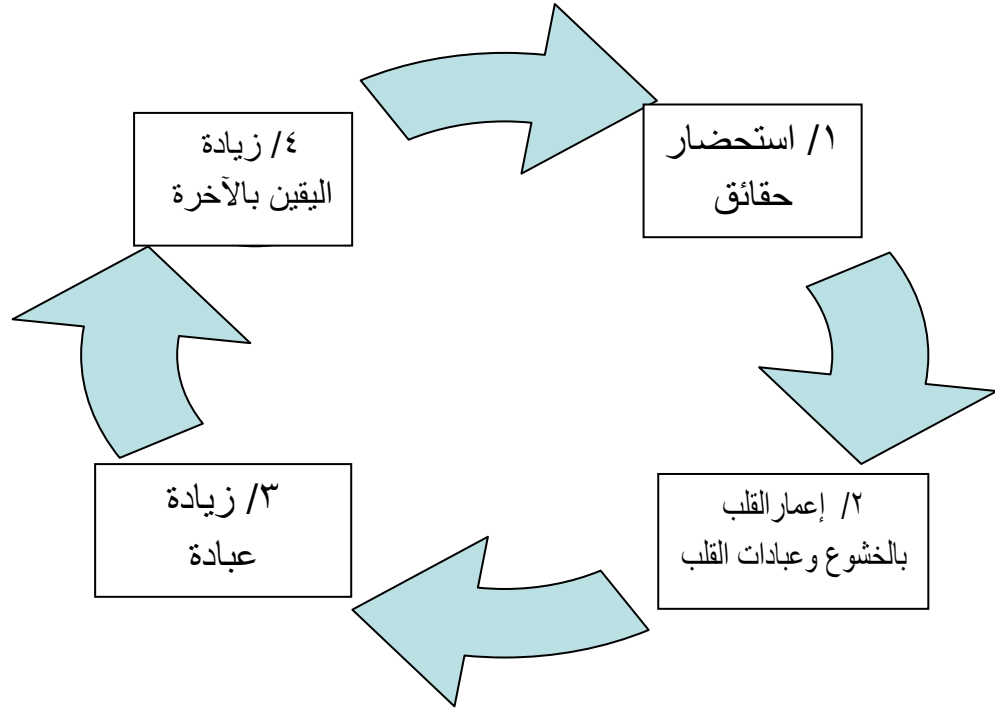
٧٤ [الأنفال : ٢]

٧٥ تفسير الطبري - (١٣ / ٣٨٦)

المطلب الثالث: دورة أيقاظ الإيمان وتفعيله:

تمهيد: لقد استعنا مصطلح دورة من علم الأحياء فإن لكل كائن حي (حيوان) دورة حياة تتناول أطوار حياته إلى مماته ولكنه لا يموت حتى يمد هذه الحياة بنسل جديد، وبذلك تكتمل دورة الحياة بهذا النسل، الذي بمولده يعيد دورة الحياة من جديد فلا تنقطع الحياة، ولا تنقرض الأحياء، بل يتوالدون وتستمر الحياة.

والدائرة نفسها توجد في دورة أيقاظ الإيمان ولكن لا موت في مسألة الإيمان، ولذلك سمينا الدورة (دورة أيقاظ الإيمان)، ويمكن تمثيل دورة إيقاظ الإيمان وتفعيله بالشكل التالي:



رسم توضيحي ٣

ومن الشكل يتضح الآتي :

(١) رياضة الخشوع : استحضر المؤمن يقينه بحقائق الإيمان التي يؤمن بها وتفاعله معها .
ويؤدي هذا إلى:

(٢) **تحقق الخشوع** : يجعل قلبه عامرا بالخشوع وبالعبادات القلبية مثل : التوبة والإنابة والرغبة والرهبة من الله وخوفه ورجائه .

وكل هذه المشاعر تثمر :

(٣) **ثمرة الخشوع** : زيادة عبادة الجوارح التي فيها إثارة الآخرة على الدنيا والاستعداد لها، وتقديم الأعمال الصالحة .

وهذا ينعكس على القلب في:

(٤) **طمأنينة القلب باليقين وبالخشوع** : ثبات ورسوخ اليقين بالله وبالدار الآخرة في القلب الذي يؤدي بدوره إلى استحضار حقائق الآخرة.... وهكذا تدور دائرة الإيمان بدون توقف. بل وتشتد وتيرة سيرها و يقوى أثرها في كل دورة عن سابقتها.

وهكذا يصبح المؤمن في دائرة فعل حقائق الإيمان ومجالها. فتتسع دائرة عبادة جوارحه وتزداد وتيرة عبادة قلبه كلما تم تجديد هذا الإيمان و وإيقاظه وتفعيله بهذا المنهج الواضح للخشوع.

خاتمة :

هذا ما يسر الله من أثر تدبر القرآن الحاسم والمباشر في الخشوع . وأثره الحاسم في :

○ استحضار حقائق الإيمان بالله وبالיום الآخر ... الخ أركان الإيمان .

○ اليقين بالله وبالיום الآخر ...

○ الاطمئنان بذكر الله أو بالقرآن .

○ الترقى في مراتب الإيمان ودرجات الإحسان .

وأثر كل واحدة منها على حدة الحاسم في إيجاد الخشوع .

والتأثيرات المتبادلة والمتكاملة بينها كل منها لإيجاد الأخرى، وكل منها لإيجاد الخشوع.

ثبت الراجع والمصادر

١. القرآن الكريم
٢. صحيح البخاري . محمد بن اسماعيل البخاري . دار طوق النجاة . الطبعة : الأولى ١٤٢٢ هـ
٣. صحيح مسلم . مسلم بن الحجاج . دار الجيل بيروت + دار الأفق الجديدة . بيروت
٤. الجامع الصحيح سنن الترمذي . محمد بن عيسى الترمذي . دار إحياء التراث العربي - بيروت
٥. سنن النسائي الكبرى . أحمد بن شعيب النسائي . دار الكتب العلمية - بيروت . الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١
٦. المستدرك على الصحيحين . محمد بن عبدالله الحاكم . دار الكتب العلمية - بيروت . الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠
٧. سنن البيهقي الكبرى . أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي . مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤ - ١٩٩٤
٨. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) . محمد بن جرير أبو جعفر الطبري . مؤسسة الرسالة . الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
٩. تفسير القرآن العظيم . إسماعيل بن عمر بن كثير . الطبعة الجديدة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م
١٠. تفسير البغوي (معالم التنزيل) . الحسين بن مسعود البغوي . دار طيبة للنشر والتوزيع . الطبعة : الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
١١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان . عبد الرحمن بن ناصر السعدي . مؤسسة الرسالة . الطبعة : الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
١٢. في ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق . بيروت
١٣. سلاح البقطان لطرد الشيطان : عبد العزيز السلطان
١٤. الفتاوى الكبرى . أحمد بن عبدالحليم بن تيمية . دار المعرفة - بيروت . الطبعة الأولى، ١٣٨٦
١٥. الوابل الصيب من الكلم الطيب . محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ابن قيم الجوزية) . دار الكتاب العربي - بيروت . الطبعة الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥
١٦. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ابن قيم الجوزية) . دار الكتاب العربي - بيروت . الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣
١٧. كتاب الروح . ابن القيم . ص: ٣١٤ ط. دار الفكر - الأردن
١٨. التعريفات - علي بن محمد بن علي الجرجاني . دار الكتاب العربي - بيروت . الطبعة الأولى، ١٤٠٥
١٩. القاموس المحيط . محمد بن يعقوب الفيروزآبادي
٢٠. دروس التفسير للشيخ محمد متولى الشعراوي
٢١. مقدمة تفسير الطبري . محمود شاكر
٢٢. أساليب الوعظ والتذكير بالقرآن . رسالة ماجستير . عبد الجبار عبد الله القباطي .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	١
المبحث الأول: بين يدي الخشوع	٥
أولاً : تعريف الخشوع والمقصود بالخشوع عند قراءة القرآن.	٥
ثانياً : أقوال في حقيقة الخشوع (في الصلاة):	٥
ثالثاً : خصائص للخشوع :	٦
رابعاً : قدوات في الخشوع	٨
خامساً : مما يعين على الخشوع	٩
المبحث الثاني: التخلية وجمعية القلب على هم الآخرة.	١٢
أولاً : من أهم خصائص القرآن الخشوع عنده	١٢
ثانياً: تعريف: التدبر والمقصود بتدبر القرآن	١٣
ثالثاً : التدبر يحضر الخشوع لا محالة	١٣
رابعاً : منهجية القرآن في نقل القلب من اللحظة الحاضرة إلى مجال حقائق الإيمان ودرجات الإحسان :	١٤
خامساً : ابن القيم يقرر حصول حقائق الخشوع للمؤمن بالتدبر	١٧
المبحث الثالث: توليد الإيمان وتفعيله	١٩
المطلب الأول: استحضار حقائق الإيمان يوجد الخشوع	١٩
المطلب الثاني: بين اليقين والخشوع والاطمئنان لذكر الله	١٩
المطلب الثالث : رياضة الخشوع	٢٣
المبحث الرابع : بين طمأنينة الإيمان ودرجات الإحسان	٢٩
المطلب الأول: الطمأنينة الإيجابية والترقي	٢٩
المطلب الثاني: نظام حركة (دينامو) التزكية الذاتي في الإسلام(علاقة الخشوع بالتزكية)	٣١
المطلب الثالث: دورة أيقاظ الإيمان وتفعيله	٣٥
ثبت الراجع والمصادر	٣٨